الضيف

قصة بقلم البير كامو

ترجمة جورج طرابيشي

كان المعلم ينظر الى الرجلين وهما يصعدان نحوه . احدهما على الحصان ، والاخر على قدميه. لم يكونا قد بلغا بعد الدرب الصغير السريع الانحدار الذي يؤدي الى المدرسة ، المبنية عند سفح تل . كانا يسيران مجهدين ، ويتقدمان ببطء في الثلج ، بين الحجارة ، على المدى الشاسع للهضبة العالية المقفرة . ومن حين الى حين كان الحصان يكبو بشكل ظاهر . لم يكن صوته ليسمع بعد ، ولكن كان يمكن رؤية نفحة البخار التي تخرج عند ذاك من منخريه . وكان احد الرجلين ، على الاقل ، يعرف المنطقة . كانا يتقدمان في الطريق التي اختفت منذ بضعة ايام تحت طبقة بيضاء وقذرة . وحسب المعلم انهما لن يصلا الى التل قبل نصف ساعة . كان الطقس باردا ، فدخل الى المدرسة ليأتي بكنزة .

وعبر قاعة الصف ، الخاوية والباردة . على اللوح الاسود كانت انهار فرنسا الاربعة ، المرسومة بأربعة الوان مختلفة من الحكك ، تجري نحو مصبها منذ ثلاثة ايام . لقد سقط الثلج بعنف في منتصف تشرين الاول ، بعد ثمانية شهور من الجفاف ، بدون ان يهطل المطر كفترة انتقال ، والعشرون تلميذا الذين يسكنون في القرى المتناثرة على الهضبة انقطعوا عن الدوام . لا بد من انتظار الطقس الجميل . و « دارو » لا يشعل الان النار الا في الغرفة الوحيدة التي يتكون منها مسكنه ، والمتصلة بالصف ، والمطلة ايضا على الهضبة من الشرق. كما ان نافذة اخرى ، كسائر نوافذ الصف ، تطل على الجنوب . ومن هذه الجهة ، كانت المدرسة تقع على بعد عدة كيلومترات من المكان الذي تبدأ فيه الهضبة بالانحدار نحو الجنوب . وفي ايام الصحو ، يمكن ان تلمح كتل السلسلة الجبلية البنفسجية حيث ينفتح باب الصحراء .

وبعد ان تدفأ « دارو » قليلا ، عاد الى النافذة التي لمح منها لاول مرة ، الرجلين . انهما لا يبدوان الان . لقد بلغا اذن الدرب المنحدر . كانت السماء أقل ظلمة ، وقد كف الثلج اثناء الليل عن السقوط . وكان الصباح قد اشرق على ضوء كدر لم يستطع ان يثبت نفسه الا بمقدار ما كانت الغيوم ترتفع . لم يكن ممكنا ان يقال ان النهار قد بدأ حقا ، الا بعد الساعة الثانية من بعد الظهر . ولكن هذا افضل من تلك الايام الثلاثة التي كان فيها الثلج الكثيف يتساقط وسط الظلمات اللامنقطعة ، مع تحولات مفاجئة في اتجاه الريح التي كانت ترج باب الصف المزدوج . وقد امضى « دارو » آنذاك ساعات طويلة في غرفته التي لم يكن ليخرج منها الا ليذهب الى البناء الصغير الملحق ، ليعتني بالدجاجات ، وليغرف من مؤونة الفحم . ولحسن الحظ ، كانت شاحنة « طاجد » ، وهي اقرب قرية في الشمال ، قد جاءت بالمؤونة قبل يومين من العاصفة . وستعود بعد ثمان واربعين ساعة .

ان لديه ، بالاصل ، ما يستطيع ان يواجه به حصارا ، باكياس الحنطة الملقية في الغرفة الصغيرة والتي تتركها الادارة له كاحتياطي ليوزعها على من سقط من اهالي تلاميذه ضحية للجفاف . وفي الواقع، كانت الكارثة قد حلت بهم جميعا لانهم جميعا فقراء . وفي كل يوم ، كان « دارو » يوزع جراية على الصغار . انهم يحتاجون اليها ، وهو يعلم ذلك جيدا ، في الأيام السيئة . ولعل احد الاباء او الاخوة الكبار سيأتي هذا المساء فيستطيع ان يمونهم بالحبوب . كان يجب ان يستمر الحصاد حتى المحصول القادم ، هذا كل شيء . ان سفنا محملة بالقمح تصل الان من فرنسا ، واعصب ايام الكارثة قد مضت . ولكن سيكون من الصعب نسيان هذا الشقاء ، هذا الجيش من الاشباح المتشحة بالاسمال والمتسكعة في الشمس ، والهضاب التي تتلظى شهرا بعد شهر ، والارض التي تتقوقع شيئا فشيئا ، والصخور التي بعد ان شويت حقا تتفجر غبارا تحت الاقدام . وكانت الاف الخراف وبضعة بشر يموتون آنذاك هنا وهناك ، دون ان تمكن معرفة ذلك دوما.

وامام هذا الشقاء ، احس ، هو الذي كان يعيش كراهب تقريبا في مدرسته الضائعة ، قانعا اصلا بالقليل الذي لديه ، وبتلك الحياة الشظفة ، أحس بانه سيد ، بجدرانه المجصصة ، وأريكته الضيقة ، ورفوفه الخشبية البيضاء ، وبئره ، وتموينه الاسبوعي بالماء والطعام . وفجأة ، جاء ذلك الثلج ، دون انذار ، دون انفراج المطر . لقد كان البلد هكذا ، شظف العيش ، حتى بدون البشر الذين ، مع ذلك ، لم يكونوا ليسووا شيئا . ولكن « دارو » قد ولد فيه . وهو سيحس بنفسه منفيا في اي مكان آخر .

وخرج وتقدم على الباحة امام المدرسة . كان الرجلان قد بلغا الان نصف المنحدر . وتعرف في شخص الفارس ، الى « بالدوشي » الدركي العجوز الذي يعرفه منذ زمن بعيد . كان « بالدوشي » يمسك بطرف حبل ، عربيا يتقدم وراءه ، موثق اليدين ، محني الجبهة . واشار الدركي بيده مسلما لكن دارو لم يرد التحية ، اذ كان مشغولا بكليته في النظر الى العربي الذي يرتدي « جلابية » كانت زرقاء في الماضي ، والى قدميه المنتعلتين ، ولكن المكسوتين بجوربين من صوف الخز الغليظ ، والى رأسه المتلفع بمنديل ضيق وقصير . كانا يقتربان و « بالدوشي » يقود الحصان على مهل كي لا يجرح العربي ، والثلاثة يتقدمون ببطء .

وصرخ « بالدوشي » عندما اقترب الى حد يمكن معه سماع صوته : « ساعة كاملة لنسير الكيلومترات الثلاثة بين « العمور وهنا ! » . ولم يجب « دارو » . كان ينظر اليهما يصعدان ، وقد بدا قصيرا ومربعا في كنزته السميكة . لم يرفع العربي رأسه ، ولا مرة واحدة . وقال « دارو » عندما انتهيا الى الباحة : « مرحبا . ادخلا لتتدفآ » . ونزل « بالدوشي » بصعوبة عن دابته ، دون ان يترك الحبل . وابتسم للمعلم تحت شاربيه المزبئرين . كانت عيناه الصغيرتان الغائمتان ، والغائرتان كثيرا تحت الجبين الاسمر ، وفمه المحاط بالغضون ، تجعله يبدو منتبها ومجتهدا . واخذ « دارو » الزمام ، وقاد الدابة نحو البناء الملحق ، ثم عاد نحو الرجلين اللذين كانا ينتظرانه الان في المدرسة . وادخلهما الى غرفته . وقال « سأدفىء غرفة الصف . وبذلك سنستريح اكثر » . وعندما دخل من جديد الى

الغرفة ، كان « بالدوشي » على الاريكة . لقد فك الحبل الذي يربطه بالعربي ، فجلس هذا الاخير امام المدفأة . وكان ينظر ويداه لا تزالان موثقتين ، ومنديل رأسه قد دفع الى الوراء ، نحو النافذة . ولم يـر « دارو » في البدء سوى شفتيه الغليظتين ، المليئتين ، الملستين ، السوداوين تقريبا ، ولكن انفه كان مستقيما ، وعيناه قاتمتين ، مليئتين بالحمى . وكان المنديل يتكشف عن جبهة عنيـدة ، وتحت الجـلد المشوي مرارا وتكرارا ، الذي فقد لونه قليلا بسبب البرد ، كان وجهه يبدو قلقا ومتمردا في آن واحد ، مما أذهـل « دارو » عندما أدار العربي وجهه نحوه وحدق في عينيه . وقـال المعلم : « هيا الـى الغرفة الاخرى ، سأعد لكما شايا بالنعنع » . فقال « بالدوشي » : « شكرا . يا للسخرة ! ليات التقاعد بسرعة » . ثم اضاف موجهـا كلامه بالعربية الى سجينه : « تعال ، انت » . ونهض العربي ، وانتقل ببطء ، مادا يديه الموثقتين امامه ، الى المدرسة .

وحمل « دارو » مع الشاي مقعدا . ولكن « بالدوشي » كـان قد تربع على اول طاولة للتلاميذ ، بينما جلس العربي على محفـة طاولة المعلم ، تجاه المدفأة الكـائنة بين المكتب والنافذة . وتـردد « ارو » عندما مد بكأس الشاي الى السجين ، امام يديه الموثقتين ، وقال : « لعل بالامكان اطلاق يديه » . فأجـاب « بالدوشي » : « بالتأكيد . كان ذلك من اجل الرحلة » . وتهيأ للقيام . ولكـن « دارو » وضع الكأس على الارض ، وركع قرب العربي . كان هـذا ينظر اليه يفعل ذلك ، بعينيه المحمومتين ، دون ان يقول شيئا . ولما تحررت يداه ، فرك بهما معصميه المنتفخين ، وتناول كأس الشـاي واحتسى السائل المحرق بجرعات صغيرة سريعة .

وقال « دارو » : « طيب . وهكذا ، الى اين تذهبان ؟ »

وسحب « بالدوشي » شاربيه من الشاي وقـال : « هنا ، يا بنـي » .

– يا للتلاميذين المضحكين ! هل ستنامان هنا ؟

– كلا . سأعود الى « العمور » . وانت ، ستسلم الرفيق فـي « تانغيت » . انهم ينتظرونه في الدائرة المختلطة .

كان « بالدوشي » ينظر الى « دارو » بابتسامة ودية صغيرة . وقال المعلم :

– ما هذا الذي تقوله ، أتسخر بي ؟

– كلا ، يا بني . انها الاوامر .

– « الاوامر ؟ انني لست ... » وتردد « دارو » ، فهو لا يريد ان يجرح شعور الكورسيكي العجوز . « اخيرا ، انها ليست مهنتي » .

– ايه ! ماذا يعني هذا ؟ في الحرب ، يقوم الانسان بجميع المهن .

– اذن ، سأنتظر اعلان الحرب !

ووافق « بالدوشي » بهز رأسه ، وقال : « حسنا . ولكـن الاوامر موجودة ، وهي تتعلق بك ايضا . ان الامور تتحرك ، على ما يبدو . انهم يتحدثون عن تمرد قريب . اننا مستنفرون ، الى حد ما »

وظل « دارو » محتفظا بمظهره العنيد . وقال « بالدوشي » : اسمع يا بني . انني احبك كثيرا ، يجب ان تفهم . اننا اثنـا عشر رجلا في « العمور » لنقوم بأعمال الداورية في اراضي ولاية صغيرة ، ويجب ان اعود . قالوا لي ان اسلمك هذا الشخص وان اعـود دون تأخر . لا يمكننا الاحتفاظ به هناك . ان قريته تضطرب ، وهم يريدون ان يستردوه . يجب ان تأخذه الى « تانغيت » نهار غد . انعشرين كيلومترا لا تخيف شجاعا مثلك . وبعد ذلك ، سينتهي الامر . ستعود الى تلاميذك والحياة الرغدة » .

ووراء الجدار ، سمع الحصانوهو يصهلخوفا ويضرب بحافره . ونظر « دارو » من النافذة . كان الطقس قد اشرق بوضوح ، وامتـد النور الى كل الهضبة المثلجة . عندما سيذوب الثلج كله ، ستسـود الشمس من جديد وتحرق مرة اخرى حقول الحجارة . وستظلالسماء التي لا تتبدل ، خلال بضعة ايام ، ايضا ، تصب نورها الجاف على المدى المنعزل حيث لا شيء يذكر بالانسان .

وقال وهو يلتفت الى « بالدوشي » : « اخيرا ، ما الـذي فعله ؟ » . ثم سأل قبل ان يفتحالدركي فاه : « أيتكلم الفرنسية ؟ »

– كلا ، ولا كلمة . كنا نبحث عنه منذ شهر ، ولكنهم كـانوا يخبئونه . لقد قتل ابن عمه .

– أهو ضدنا ؟

– لا اعتقد . ولكن لا يمكن معرفة ذلك ابدا .

– لماذا قتل ؟

– مسائل عائلية ، على ما أعتقد . كان احدهما مدينا للاخـر بحبوب ، على ما يبدو . المسألة ليست واضحة . اخيرا ، باختصار ، لقد قتل ابن العم بضربة منجل . أتعرف ، مثل خروف ، زيك !..

وتظاهر « بالدوشي » بأنه يمرر شفرة على حنجـرته ، وراح العربي ، الذي انجذب انتباهه ، ينظر اليه بنوع من القلق . وتملـك « دارو » غضب مفاجيء ضد هذاالرجل ، ضد جميع الرجالوخباثتهم القذرة ، واحقادهم التي لا تكل ، وجنونهم الدموي .

ولكن المغلاة كانت تغني على المدفأة . وقدم من جديد الشـاي لبالدوشي ، وتردد ، ثم قدم ايضا للعربي الذي شرب ، مرة اخرى ، بشراهة . وكشفت ذراعاه المرفوعتان عن « الجلابية » ولمح المعـلم صدره النحيف البارزة عضلاته .

وقال « بالدوشي » : « شكرا ، ايها الصغير . والان ساذهب » . ونهض واتجه نحو العربي ، وهو يسحب حبلا صغيرا منجيبه .

وسأله « دارو » بجفاء :
ـ ما الذي تفعل ؟
فأراه « بالدوشي » الحبل وقد تملكه الذهول .
ـ ليس ثمة داع لذلك .
وتردد الدركي العجوز :
ـ كما تريد . بالطبع ، انك مسلح ؟
ـ عندي بندقية صيدي .
ـ ايـن ؟
ـ في الحقيبة .
ـ يجب ان تكون قرب سريرك .
ـ لماذا ؟ ليس ثمة ما اخشاه .
ـ انك مجنون ، يا بني . اذا تمردوا ، فلن يوفروا انسانـا ، سنواجه جميعا نفس المصير .
ـ سأدافع عن نفسي . لدي من الـوقت ما يكفي لرؤيتهـم وهم قادمـون .
واخذ « بالدوشي » يضحك ، ثم جاء شاربه فجأة ليغطي مـن جديد اسنانه التي لا تزال بيضاء .
« لديك وقت ؟ حسنا . هذا ما كنت أقوله . لقد كنت دومـا ساذجا قليلا . ومن اجل هذا احبك كثيرا ، فابني كان هكذا » .
وسحب في الوقت نفسه مسدسه ووضعه على المكتب .
« احتفظ بـه ، فليس بي حاجة الى سلاحين من هنـا حتى « العمـور » .
ولمع المسدس فوق دهان الطاولة الاسود . وعندما التفت الدركي نحوه ، أحس المعلم برائحة الجلد والحصان تفوحمنه . وقال « دارو » فجأة : « اسمع يا بالدوشي ، كل هذا يثير اشمئزازي ، ورجلك قبـل غيره . ولكنني لن اسلمه . سأقاتل ، نعم ، اذا اقتضى الامر . ولكن ليس هذا » .
كان الرجل العجوز يقف امامه ناظرا اليه بقسوة . وقال ببطء : « انك ترتكب حماقات . انا ايضا لا احب ذلك . ان تربط انسـانا بحبل ، فانك لن تستطيع التعود على ذلك ، على الرغم من السنين ، بل وتشعر بخجل ، نعم . ولكننا لا نستطيع ان نتركهم يفعلون » .
فكرر « دارو » قوله :
ـ لن اسلمه .
ـ انه امر ، يا بني . اكرر عليك ذلك .
ـ ذاك هو . كرر عليهم ما اقوله لك : لن اسلمه .
وقام « بالدوشي » بجهد واضح ليفكر . ونظر الى العربـي و « دارو » . واخيرا قرر :
ـ كلا . لن اقول لهم شيئا . اذا كنت تريد ان تتخلى عنـا ، فلك ذلك ، ولن اخبر عنك . لدي امر بتسليم السجين ، وانا افعل ذلك . ستوقع الان لي على الاوراق .
ـ هذا لا يجدي . لن انفي انك تركته لي .
ـ لا تكن خبيثا معي . اعرف انك ستقول الحقيقة . انك مـن هنا ، انك رجل . ولكن يجب ان توقع ، تلك هي القاعدة .
وفتح « دارو » درجه ، واخرج دواة صغيرة مربعة من الحبـر البنفسجي ، وحاملة الريشة الخشبيـة الحمراء ، مع ريشـة « سرجان ـ مايجور » التي يستخدمها فـي تخطيط نماذج الكتابـة ووقـع . وطوى الدركي الورقة بعناية ووضعها في محفظته . ثـم اتجه نحو الباب . فقال « دارو » :
ـ سأرافقك .
فقال « بالدوشي » :
ـ كلا . ليس ثمة داع لان تكون مهذبا . لقد اشعرتني بالعار .
ونظر الى العربي ، الذي لم يبرح مكانه ، واستنشق من انفـه بحزن ، وتحول نحو الباب وقال : « الوداع ، يا بني » . وانغلـق الباب بشدة وراءه . وبان « بالدوشي » امام النافذة ثم اختفـى .

وخنق الثلج وقع خطاه . واضطرب الحصان وراء الحاجز ، وخافت الدجاجات . وبعد قليل ، مر « بالدوشي » امام النافذة من جـديد وهو يسحب الحصان من الزمام . كان يتقدم نحو الدرب المنحـدر دون ان يلتفت ، واختفى اولا ثم تبعه الحصان . وسمع صوت حجـرة ضخمة تتدحرج برخاوة . وعاد « دارو » نحو السجين الذي لـم يتحرك ، ولكن الذي ظلت عيناه لا تفارقانه . وقال المعلم بالعربية : « انتظر » واتجه نحو الغرفة . وفي اللحظة التي بلغ فيها العتبـة ، بدل رأيه ، وذهب الى المكتب واخذ المسدس ووضعه في جيبـه . ثم ، دون ان يلتفت ، دخل الى غرفته .
وظل ، فترة طويلة ، مستلقيا على الاريكة ينظر الى السماء وهي تنغلق شيئا فشيئا ، ويصغي الى الصمت . ان هذا الصمت هـو الذي بدا له صعبا في الايام الاولى لوصوله ، بعد الحرب . لقـد طلب مركزا في المدينة الصغيرة التي عند سفح السلسلة الجبليـة الصغيرة التي تفصل الصحراء عن الهضاب العالية . هناك ، تنتصب جدران صخرية ، خضراء وسوداء في الشمال ، وردية وبنفسجيـة في الجنوب ، كحدود للصيف الابدي . لكنهم عينوه في مركز ابعد شمالا ، على الهضبة نفسها . وفي البدء ، بدت له العزلة والصمت قاسيين فوق هذه الاراضي القاحلة ، التي لا تسكنها الا الحجـارة فقط . واحيانا ، توحي بعض الاخاديد بان الارض قد حرثت ، ولكنها انما حفرت ليستخرج منها نوع من الحجارة ، مناسب للبناء . انهـم لا يحرثون هنا الا ليحصدوا الحصى . واحيانا اخرى ، تستخرج بعض الاتربة ، المتجمعة في الحفر ، لتسمد بها بساتين القرى الهزيـلة . هكذا هي الحال ، فالحصى وحده يغطي ثلاثة ارباع المنطقة . كانت المدن تلد فيها ، وتلمع ثم تختفي ، ويمر البشر عبـرها فيتحابون او يتباغضون ، ثم يموتون . وفي هذه الصحراء ، لم يكـن لاي شخص ، ولا له او لضيفه ، اية قيمة . ومع ذلك ، خارجا عن هذه الصحراء ،

دار الثقافة بيروت تقدم :

العقل المنطلق

تأليف هاري وبونارو أوستريت
ترجمة : عبد الحميد ياسين

٥٢٥ صفحة من القطع المتوسط ٥٠٠ ق.ل او ما يعادلها

تلفون ٣٠٥٦١ ـ بيروت

يطلب من الناشر دار الثقافة ص.ب. ٥٤٣
وعموم المكتبات

لا يستطيعان ، لا الاول ولا الثاني ، و « دارو » يعلم ذلك ، ان يعيشا حقـــا .

عندما نهض ، لم يكن يصدر اي صوت من قاعة الصف . ودهش لهذا الفرح الصريح الذي يتملكه بمجرد ان يفكر بان العربي قد استطاع ان يهرب وبانه سيعود من جديد الى عزلته دون ان يضطر الى اتخاذ قرار ما . ولكن السجين كان هناك . لقد رقد فقط بكل طوله بين المدفأة والمكتب . كان ينظر ، مفتوح العينين ، الى السقف . ولم يكن يرى منه ، في هذا الوضع ، سوى شفتيه الغليظتين اللتين تجعلانه يبدو حردا . وقال « دارو » : « تعال » . ونهض العربي وتبعه . وفي الغرفة ، اراه المعلم كرسيا قرب الطاولة ، تحت النافذة. واتخذ العربي مكانه عليه دون ان يكف عن النظر الى « دارو » .

ـ أأنت جائع ؟

فأجاب السجين :

ـ نعم .

ووضع « دارو » ادوات المائدة لشخصين . واخذ طحينا وزيتا ، وعجنهما في الاناء ليصنع منهما كعكا واشعل فرن البوتاغاز الصغير . وبينما كان الكعك يقلى خرج ليأتي بجبن وبيض وتمر ولبن مصفى من البناء الملحق . وعندما نضج الكعك ، وضعه على حافة النافذة ليبرد ، وسخن قليلا من اللبن المصفى المدد بالماء ، ثم ، في النهاية ، فقأ بيضا فوقه . وفي احدى حركاته ، صدم المسدس الملقى في جيبه الايمن . ووضع الاناء ودخل الى قاعة الصف ، والقى بالمسدس في درج مكتبه . وعندما عاد الى الغرفة ، كان الليل قد ارخى سدوله . واشعل الضوء وقدم الطعام للعربي قائلا : « كل » . فتناول هذا قطعة من الكعك ، وحملها بسرعة الى فمه وتوقف . ثم قال :

ـ وانت ؟

مكتبة انطوان

فرع شارع الامير بشير

ص.ب ٦٥٦ ـ تلفون ٢٧٦٨٣

مارون عبود — ادب العرب

اميل خوري وعادل اسماعيل — السياسة الدولية في الشرق العربي (ج٣)

البير نادر — ابن سينا والنفس البشرية

بشاره الخوري — حقائق لبنانية

يوسف يزبك — ولي من لبنان

حروب العصيان والثورات — تعريب جورج مصروعه

لا تطفىء الشمس — احسان عبد القدوس

لبنان ان حكى — سعيد عقل

المجدلية — سعيد عقل

خلاص العالم — تيبور ماند

لبنان بلد المحبة والاخاء — شاكر عمار

ـ بعدك . سآكل ايضا .

وانفتحت الشفتان الغليظتان قليلا ، وتردد العربي ، ثم عض بحزم على الكعكة .

وعندما انتهى العشاء ، عاد العربي ينظر الى المعلم .

ـ أأنت هو القاضي ؟

ـ كلا ، سأحتفظ بك حتى الغد .

ـ لماذا تأكل معي ؟

ـ انني جائع .

وصمت الاخر . ونهض « دارو » وخرج . وعاد بسرير للمخيمات من البناء الملحق ، ومده بين الطاولة والمائدة ، عموديا على سريره الخاص. ومن حقيبة كبيرة ، ملقاة في احدى الزوايا ، كان يستعملها كرف للسجلات ، اخرج غطاءين وضعهما على سرير المخيمات . ثم توقف ، وأحس بأنه بلا عمل ، وجلس على فراشه . لم يكن هناك ما يعمل او يعد . لا بد من النظر الى هذا الرجل . فنظر اليه اذن ، محاولا ان يتصور هذا الوجه وقد اثاره الحنق . ولم يستطع ذلك . كان يرى فقط النظرة القاتمة والمتألقة في آن واحد ، والفم الحيواني . وقال بصوت فاجأه لما فيه من كراهية : « لماذا قتلته ؟ »

وغض العربي نظره .

ـ لقد هرب . فركضت وراءه .

ورفع عينيه الى « دارو » وكانتا مليئتين بنوع من الاستفهام التعيس.

ـ والان ، ماذا سنفعل ؟

ـ أأنت خائف ؟

وتصلب الاخر ، وهو يغض نظره .

ـ أأنت نادم ؟

ونظر اليه العربي ، فاغر الفم . كان من الواضح انه لم يفهم . وتملك الغيظ « دارو » . وفي الوقت نفسه ، أحس بنفسه اخرق ، مضغوطا في جسده الضخم ، محصورا بين السريرين . وقال وقد فقد صبره :

ـ ارقد . هذا سريرك .

ولم يتحرك العربي . ونادى « دارو » :

ـ قل !

ـ أسيعود الدركي غدا ؟

ـ لست أدري .

ـ ستأتي معنا ؟

ـ لست ادري . لماذا ؟

ونهض السجين ، ثم تمدد على الغطاءين ، وقدماه باتجاه النافذة . كان نور الصباح الكهربائي يسقط مستقيما على عينيه اللتين سرعان ما أغلقهما .

وكرر « دارو » ، وهو منتصب امام السرير :

ـ لماذا ؟

وفتح العربي عينيه تحت النور المبهر ونظر اليه محاولا ألا يرف جفناه . وقال :

ـ تعال معنا .

عند منتصف الليل ، لم يكن « دارو » قد نام بعد . وجلس على السرير بعد ان خلع ثيابه كلها ، فهو ينام عاريا عادة . ولكنه لما وجد نفسه دون ثياب في الغرفة ، تردد . وأحس بنفسه بأنه يمكن ان يصاب بسوء ، وود لو يرتدي ثيابه ثانية . ثم هز كتفيه ، فهو قد رأى آخرين من أمثاله ، واذا اقتضى الامر ، فسيشطر خصمه شطرين . ومن سريره ، كان يستطيع ان يرقبه ، ممددا على ظهره ، ساكنا دوما وعيناه مغلقتان تحت النور البنفسجي . وعندما أطفأ « دارو » الضوء ، بدت الظلمات وكأنها قد تخثرت فجأة . وشيئا فشيئا ، عاد الليل حيا عند النافذة حيث كانت السماء تتحرك ، دون نجوم ، بهدوء . وسرعان ما ميز المعلم الجسد المدد امامه . كان العربي لا يزال بلا حراك ، ولكن عينيه كانتا تبدوان مفتوحتين . وكان ثمة

ريح خفيفة تجول حول المدرسة . ولعلها ستطرد الغيوم فتعـــود الشمس .

وتعاظمت الريح ، اثناء الليل . واضطربت الدجاجات قليــــلا ثم سكنت . واستدار العربي على جانبه ، مديرا ظهره لدارو ، وخيل لهذا انه سمعه يئن . ثم راقب تنفسه الذي اصبح اقوى واكثـــر انتظاما . كان يصغي الى هذه الانفاس القريبة جـدا ويحلم دون ان يستطيع النوم . وفي الغرفة التي ينام فيها منذ عام ، كان هـــذا الحضور يزعجه . ولكنه كان يزعجه ايضا لانه يفرض عليه نوعـا من الاخاء يرفضه في الظروف الحاضرة التي يعرفها جيدا : فالرجـال الذين يتقاسمون نفس الغرف ، سواء كانوا جنـــودا ام سجناء ، يعقدون بينهم رابطة غريبة وكأنهم ، بعد ان نزعوا اسلحتهم الى جانب ثيابهم ، ينضمون كل مساء ، متجاوزين الفروق بينهم ، في مجتمـع الحلم والتعب القديم . ولكن « دارو » نفض عنه هذه الافكار ، فهـو لا يحب هذه الحماقات ، وعليه ان ينام .

ومع ذلك ، بعـــد فترة قصيرة ، عندما تحرك العربي بشكـــل لايسمع ، كان المعلم لايزال مستيقظا . وعند حركة العربي الثانيـة ، تصلب ، وقد استنفرت حواسه . كان العربي ينهض ببطء عـــلى ذراعيه ، بحركة الماشي في نومه تقريبا . وراح ينتظر ، جالسا عـلى السرير ، بلا حراك ، دون ان يلفت رأسه نحو « دارو » ، وكأنـــه يصغي بكل انتباهه . ولم يتحرك « دارو » ، فقد فكر بأن المســدس ظل في درج مكتبه . من الافضل ان يتصرف بسرعة . ولكنه استمر في مراقبة السجين ، الذي ، بنفس الحركة المكتومة ، وضع قدميــه على الارض ، ثم انتظر قليلا ، ثم اخذ ينتصب ببطء . وكاد « دارو » يدعوه ، عندما اخذ العربي يسير ، بخطـــوات طبيعية هذه المـــرة ، ولكنها مكتومة للغاية . كان يسير نحو الباب البعيد الذي يـــؤدي الى البناء الملحق . وأدار المزلاج بحذر وخرج دافعـــا الباب وراءه ، دون ان يغلقه . ولم يتحرك « دارو » ، وقال في نفسه فقط : « انــه يهرب . انه لتخلص جيد ! » . ومع ذلك اصاخ اذنيه . لم تكـــن الدجاجات تتحرك ، فلا بد ان الاخر اذن على الهضبة . وجاءه صـوت ماء ضعيف لم يفهم معناه الا في اللحظة التي عبر العربي فيها البـــاب من جديد ، واغلقه بحذر ، ثم استلقى دون ان يحدث صوتا . عندئذ أدار « دارو » له ظهره ونام . وفيما بعد ، بدا له انه يسمع ايضـا ، في اعماق نومه ، وقع اقدام هاربة حول المدرسة . وكرر في نفســـه : « انني احلم ، احلم » . وظل غارقا في رقاده .

عندما استيقظ ، كانت السماء قد انقشعت ، ومن النافذة التـــي لم تغلق جيدا يدخل تيار بارد وصاف . كان العربي راقدا ، متقوقعا تحت الاغطية ، فاغر الفم ، مستسلما كليا . ولكن عندما هزه «دارو» ، قفز بشدة ، وهو ينظر الى دارو دون ان يعرفه بعينين مجنونتيـــن وبتعبير خائف جدا الى حد ان المعلم تراجع خطوة الى الـــوراء . « لا تخف . انني انا . يجب ان تأكل » . وهز العربي رأسه وقـال « نعم » . كان الهدوء قد عاد الى وجهه ، ولكن تعبيره ظل غائبـــا ســـاهيا .

كانت القهوة معدة . واحتسياها ، وهما جالسان على سريـــر المخيم ، يعضان على قطعتي الكعك . ثم اخذ « دارو » العربي الى البناء الملحق ودله على الحنفية حيث يغتسل . وعاد الى الغرفة ، وطـوى الاغطية وسرير المخيم ، وسوى سريره الخاص واعاد النظام الـــى الغرفة . ثم خرج الى الباحة مارا بالمدرسة . كانت الشمس قـــد صعدت في السماء الزرقاء ، ونور حنون عنيف يغرق الهضبة المقفرة . وعلى الدرب المنحدر كان الثلج يذوب في بعض الامكنة . ان الحجارة ستظهر من جديد . وراح المعلم ، وهو جالس عند سفح الهضبـــة ، يتأمل المدى المقفر . كان يفكر ببالدوشي . لقد آلمه ، وصرفـــه ، بطريقة معينة ، وكأنه لا يريد ان يواجه معه المصـــير نفسه . كان لا يزال اذن يسمع وداع الدركي ، ودون ان يدري لماذا ، أحس بنفســه فارغا وقابلا لان يصاب بسوء ، الى حد غريب . وفي تلك اللحظة ، من جانب المدرسة الاخر ، سعل السجين . واصغى « دارو » اليـه ، على مضض تقريبا ، ثم القى غاضبا ، بحصاة أزت في الهواء قبل ان تغوص في الثلج . ان جريمة هذا الرجل الحمقاء تثير تمرده ، ولكن تسليمه يخالف الشرف ، بل ان مجرد التفكير فيه يجعله مجنونـــا من الذل . ولعن معا مواطنيه الذين ارسلوا اليه هذا العربي وهـــذا الاخير الذي تجرأ على القتل ولم يعرف كيف يهرب . ونهض « دارو » واستدار على الباحة ، وانتظر ، ساكنا ، ثم دخل الى المدرسة .

كان العربي يقف منحنيا فوق اسمنت ارض البناء الملحق وهـــو يغسل اسنانه باصبعيه . ونظر اليه « دارو » ثم قال : « تعـــال » . وعاد الى الغرفة ، امام السجين . ولبس رداء الصيد فوق كنـــزته واحتذى حذاء السير . ووقف منتظرا ان يضع العربي منديل رأسه ونعليه . واجتازا المدرسة واشار المعلم الى رفيقـــه نحو المخرج . وقال : « اذهب » . ولم يتحرك الاخر . وقال « دارو » : « انني قـادم » . وخرج العربي . وعاد « دارو » الى الغرفة وصنع رزمـة من البسكويت ، والتمر والسكر . وفي قاعة الصف ، قبل ان يخرج ، تردد ثانية امام مكتبه ، ثم اجتاز عتبة المدرسة واغلق الباب . وقال : « من هنا » . وسار باتجاه الشرق ، يتبعه العربي . ولكن بعد مسافة قليلة من المدرسة ، خيل اليه انه سمع ضجة خفيفة وراءه . وعـــاد من حيث جاء . وفتش ضواحي المنزل ، لكنه لم يجد احدا . ونظـر اليه العربي وهو يفعل ذلك ، دون ان يبدو عليه انه فهم . وقـــال « دارو » : « هيا » .

وسارا ساعة ثم استراحا قرب نوع من قمة كلسية . كـــان الثلج يذوب اسرع فأسرع ، والشمس تغرف من المستنقعات ، وتنظف

دار الكشـــاف

تقدم لدنيا الصحافة والادب

صحافة ليبيا في نصف قرن

كتاب هام لمؤلف عربي مناضل غزير الانتاج يمتـاز بالصراحة والجرأة في المعتركين : الادبي والسياسي !

يطلب من كافة المكتبات

بسرعة الهضبة ، التي عادت ، شيئا فشيئا ، جافة ترتعد كالهواء نفسه . وعندما تابعا الطريق ، اخذت الارض ترن تحت اقدامهما . وبين الفينة والفينة ، يشق طائر امامهما المدى بصرخة فرحة . كان « دارو » يتنشق ، بشهيق عميق ، النسيم الرطب . وتملكه نوع من النشوة امام المدى الكبير المألوف ، الذي اصبح لونه اصفر تقريبا ، تحت قبعته المصنوعة من السماء الزرقاء . ومشيا ساعة اخرى ، وهما يهبطان نحو الجنوب . ووصلا الى ربوة مسطحة ، مليئة بالصخور السريعة التفكك . ومن هذه الربوة ، كانت الهضبة تقود ، من الشرق ، نحو سهل واطىء يمكن ان تلمح فيه بضع شجرات ضئيلة ، ومن الجنوب ، نحو تلال صخرية تجعل المشهد يبدو مضطربا .

وتفحص « دارو » الاتجاهين . لم يكن هناك سوى الافق في السماء ، وليس ثمة انسان . والتفت نحو العربي ، الذي كان ينظر اليه دون ان يفهم . ومد « دارو » له الرزمة وقال : « خذ . فيها تمر ، وخبز ، وسكر . انها تكفيك لمدة يومين . وهذه ايضا الف فرنك » . واخذ العربي الصرة والنقود ، ولكنه احتفظ بيديه مليئتين على ارتفاع صدره ، كأنه لا يدري ماذا يفعل بما اخذه . وقال المعلم : « انظر الان » ، واشار باتجاه الشرق ، هذا هو طريق تانفيت . امامك ساعتان من السير . وفي تانفيت الادارة والبوليس . وهم ينتظرونك » . كان العربي ينظر نحو الشرق ، وهو لا يزال يشد على صدره بالصرة والنقود . واخذ « دارو » ذراعه ، وجعله يستدير ، بدون لطف ، ربع دورة نحو الجنوب . وعند سفح المرتفع الذي كانا عليه ، يمتد درب خفي تقريبا . « انها الطريق التي تعبر الهضبة . بعد مسير يوم من هنا ستجد المراعي وطلائع البدو . سيستقبلونك ، ويخفونك ، حسب شريعتهم » . كان العربي قد استدار الان نحو « دارو » وقد بدا على وجهه نوع من الرعب . وقال : « اسمع » . وهز « دارو » رأسه : « كلا . اصمت . والان سأتركك » . وأدار له ظهره ، وخطا خطوتين كبيرتين باتجاه المدرسة ، ونظر بتردد الى العربي الذي ظل ساكنا ثم انطلق . وخلال بضع دقائق ، لم يسمع الا وقع وقع خطاه وحدها ، التي ترن على الارض الباردة ، ولم يدر رأسه . ولكنه ، بعد قليل ، استدار . كان العربي واقفا هناك ، عند طرف التل ، وذراعاه متدليتان الان ، وهو ينظر الى المعلم . وأحس دارو بحنجرته تطبق . ولكنه لعن بعد ان فقد صبره ، واشار اشارة كبيرة ، وانطلق . كان قد اصبح بعيدا عندما توقف من جديد ونظر . لم يكن ثمة احد على التل .

وتردد « دارو » . كانت الشمس قد ارتفعت الان عاليا جدا في السماء واخذت تلتهم جبهته . وعاد المعلم من حيث جاء ، بتردد قليل في البدء ، ثم بعزم . عندما وصل الى التل الصغير ، كان العرق يسيل منه . وصعده بسرعة وتوقف ، لاهثا ، عند القمة . كانت حقول الحجارة ، في الجنوب ، ترتسم بوضوح تحت السماء الزرقاء ، ولكن على السهل ، في الشرق ، كان البخار الحار يتصاعد . ولمح « دارو » ، منقبض القلب ، العربي وهو يسير ببط نحو طريق السجن .

بعد قليل ، كان المعلم ، وهو منتصب امام نافذة قاعة الصف ، ينظر ، دون ان يرى ، الى النور اليافع وهو يقفز من مرتفعات السماء على كل سطح الهضبة . ووراءه ، على اللوح الاسود ، بين منعطفات الانهار الفرنسية ، كانت تمتد تلك العبارة المخطوطة بالحكك من قبل يد غير ماهرة ، والتي قرأها منذ حين : « لقد سلمت اخانا . ستدفع » . كان « دارو » ينظر الى السماء ، والهضبة ، والى ما وراءهما ، الى الاراضي غير المنظورة التي تمتد حتى البحر . وفي هذا البلد الشاسع الذي أحبه كثيرا ، كان وحيدا .

ترجمة : جورج طرابيشي

صدر حديثا

الحرية والطوفان

دراسات نقدية

بقلم
جبرا أبراهيم جبرا

ست عشرة دراسة في تقييم القصة والشعر والفن اختارها المؤلف مما كتبه في السنين العشر الاخيرة ، فجاءت سفرا له خطورته الكبرى في الحركة الادبية الحديثة في العالم العربي .

دار مجلة شعر

٢٤٦ صفحة من القطع الكبير ٥ ليرات لبنانية

صدر حديثا :

رسائل مؤرقة

احدث ديوان

للشاعر العربي الكبير

سليمان العيسى

منشورات دار الاداب